

الحروب الصليبية وأثرها في العالم الإسلامي

للدكتور عبد اللطيف همزة

قيل في وصف العصور الوسطى أنها عصور (نيوقراطية) أى دينية .
ومن أجل ذلك لم يكن بد من وقوع الصراع الهائل بين العقيدتين المسيحية
والإسلامية . وشاء القدر أن يكون أشد المعارك خطراً بينهما ما وقع في فلسطين
وأن تدوم هذه المعارك الطاحنة قرنين من الزمان ، أعنى من سنة ٤٩٠ - ٦٩٠
للهجرة ، وسنة ١٠٩٦ - ١٢٩١ للميلاد .

وتعتبر الحروب الصليبية - من وجهة النظر الأوروبية - بروزاً للغرب
المسيحي في الشرق الإسلامي . وقد اقترن هذا البروز بظهور مراكز تجارية
للأوروبيين في الموانئ السورية ، ومراكز تبشيرية لرجال الدين يبشرون فيها
بالمسيحية .

أما الشرقيون فينظرون إلى هذه الحروب على أنها اعتداء من الغرب على
الشرق ، وبسببها كان المسلمون ينسون إلى حد ما جميع الفروق المذهبية بينهم
في ذلك الوقت مستجيبين في ذلك إلى العاطفة الدينية العليا ، وهى عاطفة
المسلمين - شيعة وسنيين - ضد المسيحيين أتباع للكنيسة الشرقية أو الكنيسة
الغربية .

أجل - نجحت (الحرب الصليبية الأولى) في تأسيس دولة لاتينية من
إمارات : الرها ، وأنطاكية ، وطرابلس ، وبيت المقدس . وبدأت هذه الدولة
الصليبية وسط الممالك الشرقية الإسلامية أشبه شىء بالرقعة السوداء في الثوب
الأبيض . وبقيت هذه الرقعة لاصقة بهذا الثوب حتى انتزعها المسلمون انتزاعاً
على أيدي نفر من ملوكهم وأمرائهم ؛ نخص بالذكر منهم ثلاثة وهم :
عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود المعروف بالشهيد ، وصلاح الدين
الأيوبى .

ذلك أن مركز المقاومة الإسلامية ضد الخطر الصليبي إنما بدأ في (الموصل) حيث ظهر الأتابك زنكى على أنقاض دولة السلاجقة واستولى من اللاتين على أولى إماراتهم وهى الرها .

ثم انتقل مركز المقاومة إلى (دمشق) وحاكمها نور الدين محمود . وعلى أيامه أتت (الحملة الصليبية الثانية) يقودها لويس السابع ملك فرنسا ، وكتراد الثالث ملك ألمانيا . وأغارت الحملة على دمشق وحلب ثم ردهم (الشهيد) منزهين ، واسترد فوق ذلك مدناً كانت بأيدي الفرنجة .

وأخيراً انتقل مركز المقاومة إلى (مصر) وذلك منذ نجاح صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه في انتزاع هذه البلاد من يد العاضد الفاطمى وردها إلى الخليفة العباسى . ثم ما زال صلاح الدين بالفرنج المقيمين بالمشرق حتى كسره كسرة حاسمة في حطين . ويومئذ هاج المسيحيون في أوروبا ، وأنوا لملاقاة صلاح الدين في (حملة صليبية ثالثة) لم تستطع أن تغير شيئاً من الموقف ولا استطاعت أن تسترد من المسلمين بيت المقدس .

ومنذ ذلك الوقت والحروب الصليبية نفسها تنشب في كل مكان إلا في فلسطين . فهى حيناً تيمم وجهها شطر الديار المصرية حيث ملوك الدولة الأيوبية ، كما رأينا ذلك في الحملة التى أتت إلى مصر بعد وفاة صلاح الدين ؛ وهى (الحملة الصليبية الرابعة) . وهى حيناً تتجه شطر (القسطنطينية) كما حدث ذلك في (الحملة الصليبية الخامسة) . وهى فى مرة ثالثة تعود إلى مصر ، وتختار لها ثغر (دمياط) قفل الديار المصرية فى ذلك الوقت ؛ كما حدث هذا فى حملتين متتاليتين هما (الحملة الصليبية السادسة) و (الحملة الصليبية السابعة) . والعجيب أنه بدأ للويس التاسع فى هذه الحملة الأخيرة ، وبعد خروجه من سجن المنصورة أن يتجه إلى (تونس) ، ولكن حظه فيها لم يكن أسعد من حظه فى مصر .

معنى ذلك أن أوروبا سلكت فى العصور الوسطى كل الطرق الممكنة للتغلب على الشرق الإسلامى فلم تستطع . وما إن أتى عام ١٢٩٠ هـ حتى استولى المماليك على (عكا) وطردها بذلك آخر صليبي من الساحل الشرقى للبحر

الأبيض المتوسط . ومنذ يومئذ والصلبييون يعيشون في الحزر التي احتلوها من قبل ؛ مثل جزيرة (قبرص) . وقد استولى الإنجليز عليها منذ الحرب الصليبية الثالثة ، وجزيرة (رودس) وقد احتلها فرسان الاسبتارية في بعض تلك الحروب ، وجزيرة (كريت) التي استولى عليها البنادقة .

تلك إذن قصة الحروب الصليبية التي انتصر فيها الشرق على الغرب ، وتركت آثاراً واضحة في كل من الشرق والغرب . وقد تحدث الأستاذ باركر Barker في فصل من كتاب تراث الإسلام عن أثر هذه الحروب في الغرب المسيحي . وبقى علينا أن نتحدث عن أثرها في الشرق الإسلامي .

والحق أننا لا نكاد نعرف حركة من حركات التاريخ تركت آثاراً قوية كتلك التي تركتها الحروب الصليبية . وقد بدا هذا الأثر قوياً في الشرق الإسلامي من حيث السياسة والحرب ، ومن حيث العلم والأدب واللغة والفن ومن حيث المجتمع والأخلاق ، ومن حيث المال والاقتصاد . و سنتحدث عن الجانب الحسن من هذه الآثار ، ثم نتبع ذلك بالحديث عن الجانب القبيح منها . ولا مفر لنا من توخي الإيجاز التام في هذا الحديث .

وخليق بنا عندما نصف الجوانب الطيبة أن نشيد هنا بذكر البطلين العظيمين نور الدين وصلاح الدين ، وقد رسم كل منهما للمسلمين المثل الأعلى في الجهاد والفروسية ، بل المثل الأعلى لأهم ما في الطباع الشرقية الإسلامية . وهي طباع وأخلاق تذكرنا أحياناً بالخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم باحسان كعمر بن عبد العزيز . وقد استطاع كل من هذين الرجلين أن يهيء العالم الإسلامي لقبول فكرة الحرب . وسلك كل منهما في سبيل ذلك طرقاً من أهمها التعليم لتصحيح عقائد المسلمين ، وليث فكرة الجهاد ضد الصليبيين ؛ وذلك عن طريق (المدارس) التي كثرت كثرة رائحة في كل بيئة من البيئات الإسلامية الظاهرة ، وعن طريق (الخواتم) التي يجتمع فيها المتصوفة لعبادة الله ، والدعاء للمسلمين بأن ينصرهم الله . وقد كان هذا الأمر

الأخير شيئاً عظيماً في نظر المسلمين منذ عهد نور الدين . حتى قيل لهذا الأمير يوماً ما : إن لك في بلادك إدارات كثيرة ، وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصوفية ، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل . فغضب من هذا وقال : والله إنى لأرجو النصر بأولئك ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم كيف أقطع صلوات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآنى بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟ .

وهكذا تحول العالم الإسلامى الشرقى كله إلى ميدان لهذه الحروب . واشترك فى الترويح لها يومئذ الملوك والأمراء ، والعلماء والفقهاء ، والمتصوفة والأدباء ؛ كل بطريقته وفى الحدود التى رسمتها له طبيعته ومهنته . وبلغ من قوة الروح المعنوى عند المسلمين فى ذلك الحين أن كان من علماء الدين من غامر بنفسه فى هذه الحروب ، كما فعل ذلك (الفقيه عيسى الهكارى) وكثيرون غيره . وهكذا شهدت الحروب الصليبية الفقيه المقاتل ، كما شهدت القسيس المحارب . وكان ذلك مما امتازت به الحروب فى القرون الوسطى . وأعود فأحدث عن العمل الذى قامت به كل طائفة من الطوائف السابقة على حدة .

فأما طائفة (العلماء) فكان عليها أن تغذى الجانب الإدراكى فى نفس المقاتل العربى فى تلك الفترة . فقد كان على العربى الذى طلب إليه أن يجاهد فى سبيل الوطن الإسلامى أن يعرف أنه إنما يجاهد فى سبيل الدين ، ومن أجل وطن عظيم هو الوطن الذى منه ما هو مسرى للنبوّة ومعراج للملائكة ، ومنه ما ذكر مراراً فى الكتب المقدسة ، فما أخلقه إذن بتضحية المقاتل العربى فى كل بقعة من بقاع العالم الإسلامى . وهذا هو السبب فى كثرة ما ظهر يومئذ من الكتب فى (فضائل البلاد الإسلامىة) . فكتب فى فضائل الشام ، وكتب فى فضائل مصر ، وكتب فى فضائل بيت المقدس ونحو ذلك . بل هذا هو السبب كذلك فى كثرة ما ظهر من الكتب فى موضوع (الجهاد والفروسية) . وفيها - كما فى الكتب المتقدمة - كثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والسير التاريخية ما يكفى لحض المسلمين على الاستشهاد . وبلغ من حب صلاح الدين للجهاد أن جمع له بهاء الدين بن شداد طائفة من الأحاديث

النبوية في هذا المعنى ، كانت تقرأ له في الميدان ، وهو راكب على جواده ،
والمعركة دائرة بينه وبين الفرنجة .

وأما (الشعراء والخطباء) فكان عليهم تغذية الجانب الوجداني من نفس
المقاتل العربي ، بما أنشأوه من القصائد الشعرية ، والخطب الحماسية ،
والمجالس القصصية . وقد حفظ لنا التاريخ قدراً عظيماً من الشعر خاصة .
وحسبنا هنا أن نشير إلى أشعار ابن منير ، وابن القيسراني ، وأسامة بن منقذ ،
والمهذب بن الزبير ، وابن أسعد الموصلي ، والعماد الأصفهاني (من شعراء الدولة
النورية) ، وأشعار أسامة بن منقذ (مرة أخرى) وابن أسعد الموصلي ، والعماد
الأصفهاني ، وابن جبير وابن التعاويذي ، وابن الساعاتي ، وابن سناء الملك ،
والحواثي المصري (من شعراء الدولة الصلاحية) ، وأشعار البهاء زهير ، وجمال
الدين بن مطروح ، وكمال الدين بن النبيه ، وابن عنين (من شعراء الملوك
الأيوبيية) .

وخليق بنا أن نلفت نظر القارئ هنا إلى الشعر الذي قيل في أيام
مشهورة من أيام تلك الحروب ، كيوم حطين ، ويوم دمياط ، ويوم المنصورة
ونأسف الآن لأنه ليس لدينا متسع في هذا المكان لذكر شيء من هذه الأشعار
التي تمتاز بالقوة والحق والجمال ، ولها بسبب ذلك مكان ممتاز في تاريخ الشعر
العربي كله .

فاذا تركنا الشعر إلى النثر وجدناه يقوم بتسجيل الحوادث السياسية
والوقائع الحربية ، وإبلاغها إلى مقام الخلافة العباسية ، وعجبنا كيف روعي
في هذا النثر الرسمي من الأناقة الفنية ما سما به إلى مرتبة من الفن لم يستطع أن
أن يرقى إليها الشعر . وتكفينا الإشارة هنا إلى نثر القاضي الفاضل ، والعماد
الأصفهاني ، وابن الأثير الجزري لنرى أن الجهد الفني الذي بذل في كتابة
الرسائل الديوانية لا يمكن أن يقاس به الجهد الفني الذي بذل في نظم القصيدة
الشعرية .

وهذا كله من حيث النثر الرسمي . أما النثر العلمي فنه ما كتبت به كتب
(التاريخ) ومنه ما كتبت به كتب (الجغرافيا) . وقد أصاب كلا من هذين
العلمين من التطور ما يتفق وعصر الحروب الصليبية .

ففي (التاريخ) كثرت كتب السيرة خاصة : كسيرة أسامه بن منقذ وقد كتبها هذا الشيخ السورى بنفسه ، وكتاريخ الأتابكة الذى كتبه ابن الأثير كما نعرف ، وكسيرة صلاح الدين الأيوبي ، وهى من تأليف القاضى بهاء الدين بن شداد الذى تقدم ذكره . وفي الغرب المسيحى خلفت الحروب الصليبية طائفة من الأساطير التاريخية . ومنها قصة (الطلمس) وقصة (الكونت روبرت اوف باريس) وغيرهما . وهكذا استحالت قصة الحروب الصليبية فى العالم الإسلامى إلى (سيرة) واستحالت فى العالم الأوروبى إلى (أسطورة) .

وأما فى (الجغرافيا) فلهذه الحروب أثر فيها عند الأوربيين ربما كان أوسع مدى من أثرها عند المسلمين . أما الأولون فقد ازدادت معلوماتهم الجغرافية عن الشرق ، واكتسبوا لأنفسهم نظرة واسعة إليه ، وذلك منذ أتوا بأنفسهم إلى هذا الشرق لمحاربتة . وأما المسلمون فلم ينتقلوا من ديارهم لهذه الغاية . ومع هذا فحسب العصور الصليبية أنها تركت لنا كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموى وكتاب (الإشارات إلى معرفة المزارات) لأبى الحسن الهروى . والأخير أقل أهمية من الأول . وذلك كله فضلا عن المصورات الجغرافية التى عنى بها رجال الدولة الفاطمية ، وصنعوها من النسيج ، وطرزوها بالذهب والحرير ونحو ذلك .

وأما فى (اللغة) فقد أضافت إليها الحروب الصليبية مفردات عدة . منها طائفة كبيرة من الألفاظ الأوروبية ، ومنها طائفة أخرى من الألفاظ التركية . ومن الأولى على سبيل المثال ألفاظ : البرنس ، والمركيس ، والكلوته ، والفرنجة الخ ومن الثانية على سبيل المثال كذلك ألفاظ : الاسفهلار ، والأتابك ، والدوادار ، وغير ذلك من أسماء أدوات القتال والسفن الحربية وما إليها .

وننغم الحديث عن الجوانب الطيبة للحروب الصليبية بهذه الحسنة التى تركتها . ونعنى بها هنا (التسامح الدينى) الذى نتج من طول اختلاط الفرنج بالمسلمين فى تلك الحقبة . ومن أجله كان الفرق عظيمًا جداً بين الملك الكامل محمد وفرديريك الثانى فى أواخر الحروب الصليبية من جهة ، ونور الدين وصلاح الدين فى أوائل تلك الحروب من جهة ثانية . أما الأولان فكانا

متسامحين إلى درجة لم ترض المسلمين ولا أرضت الكنيسة المسيحية بنوعها .
وأما الآخرون فكانا من التحمس الديني ، والتعصب الحقيقي على نحو ما رأينا .

بقي أن نتحدث عن السبيء من الأثر الذي تركته الحروب الصليبية ،
وقد ظهر ذلك في الفكر ، والتصوف ، والاقتصاد ، والأخلاق ، ومنها خلق
الجهاد نفسه . وحسبنا هنا الإشارة إلى أمثلة طفيفة من كل ذلك . (أما الفكر)
فقد أصيب بالشلل أو العطب في بعض جوانبه . فاختفت الفلسفة في تلك العصور
أو كادت تختفي ، وتعرضت لبغض المسلمين جميعاً على وجه التقريب . ومن
أجل ذلك ارتكب صلاح الدين خطأ عظيماً في حياته بقتله (شهاب الدين
السهروردى) . وبدلاً من أن يشتغل المسلمون بالفلسفة وما إليها اشتغلوا يومئذ
بالأحلام ، والرؤى ، ووصف الجنة ونعيمها ، ونسائها وشرابها ، وأتوا في ذلك
بأوصاف تبعث على الشهوة المادية الخالصة . ومن العلماء الذين أكثروا القول
في ذلك (ابن القيم الجوزية) .

وأما (التصوف) فنجم من رجاله طائفة مشعوذة فهمت من الجهاد أنه
انزواء في ثنايا الخوانق ، وأنه كسل وخمول وانصراف إلى المأكل والمشرب ، ولذلك
فر الكثيرون من مواطن القتال ورضوا أن يكونوا من الخوالف .

وأما (الاقتصاد) فقد ساءت حالته في العالم الإسلامي لطول أمد الحروب
الصليبية ذاتها . ويدلنا على ذلك أن الفرنج كانوا إذا طلبوا هدنة المسلمين جمع
صلاح الدين قواده وأمرأه ، فكان من رأى صلاح الدين في كل مرة أن يستمر
في الحرب ، وكان من رأى قواده في كل مرة أن يستجيبوا إلى طلب الفرنج ،
وذلك بحجة أن البلاد قد خربت وأن الأجناد قد نعبت ، وأن الأقوات قد نفذت
وأن الأسعار قد غلت ، حتى أصبح التبن أغلى من التبر ، والشعير إن وجد
غالى السعر .

وأما (الأخلاق) فقد انهارت لأسباب شتى . منها سوء الحالة الاقتصادية
ومنها حياة الحمول والكسل التي يحياها الصوفية ، ومنها انتشار الغلمان من
الأتراك والأكراد والفرنجة ، وكان هؤلاء سبباً في شيوع الشذوذ الجنسي في العالم

الإسلامي ، ومنها انتشار النساء الفرنجيات اللواتي كن سبباً من أسباب الفساد الخلقى الخ .

وأما (الجهاد) فقد قعد عنه الكثيرون من المسلمين ، وسمعنا عن بعض القضاة أنفسهم أن منهم من دخل دين النصرانية هروباً بحياته من شرور الحرب الصليبية . بل رأينا من أمراء المسلمين من استنجد بعضهم على بعض بالفرنجية . وسمعنا عن بعض أعوان صلاح الدين أنهم تبعوا من حمل السلاح ، وتعبت خيولهم من عرك اللجم ، فأظهروا الكسل والتراخي في مقاتلة العدو ، وضاق صلاح الدين نفسه ذرعاً بهذه الحالة ، فكان القاضي الفاضل يبعث إليه في أيام المحن برسائل منها قوله :

« يامولانا - أليس الله تعالى قد اطلع على قلوب أهل الأرض أفلم يؤهل ولم يستصلح ، ولم يسهل ، ولم يستعمل ، ولم يستخدم في إقامة دينه ، وإعلاء كلمته ، وتمهيد سلطانه ، وحماية شعاره ، وحفظ قبلة موحديه إلا أنت ؟ نعم - وأخرى أهم من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض ، وأطراف الدنيا ، ومغرب الشمس ، وموخر البحر ما تأخر منهم متأخر ، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد ، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة ، ولا أموال تنفق فيهم ، ولا عصا تسوقهم ، ولا سيف يزعجهم - كنت يامولانا كما قيل أبقاك الله :

ولست بملك هازم لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين مساعد إلا بدعوة ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه ، ولا خارج معك إلا بهم ، ولا خارج بين يديك إلا بأجرة ، ولا قانع منك إلا بزيادة . تشتري منهم الخطوات شراً بذراع ، وذراعاً ببيع . تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك ، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم الثاقلة ، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم » الخ .

هذا - ومنذ الحرب العالمية الأخيرة ونحن الشرقيين نصطنع كلمة جديدة في حياتنا اليومية المعروفة ، وهي كلمة (غني حرب) . وفي عصر الحروب الصليبية كثر هذا الصنف من الناس . وكانوا من التجار حيناً ومن مستخدمي

الحكومة الإسلامية حيناً آخر . فأثرت فئة على حساب فئة ، وافتقرت طبقة بسبب طبقة . وكان مستخدمو الحكومة أكثر إثراء من غيرهم ، وذلك منذ نيط بهم جمع الحبوب والشعير ونحو ذلك . وفي شعر البوصيري شكوى ظاهرة ، وسخرية مريرة من هذه الطبقة الأخيرة .

ومهما يكن من أمر فإن هذه المساوية كلها ليست شيئاً بالقياس إلى الفوائد التي جناها الشرق الإسلامي في العصور الوسطى ، وهي عصور تميزت بالدين ، وكانت ذات مثالية خلقية وصفات حربية قوية تستحق منا كل إعجاب وتقدير .

عبد اللطيف حمزة